الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زُهْر من خلال كتابه التيسير

الأستاذ : فاضل السباعي

١ ـ عصر «ابن زُهْر» :

لم نعرف السنة التي وُلد فيها الطبيبُ الأندلسيَ «أبو مروان عبدالملك بن زهر». وسواء أكان مولده سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) أو سنة ٤٨٧ (١٠٩٤). فإن الفترةَ التي سبقت مولده. وكذلك عقودَ السنين السبع أو التسع التي تمتَّع فيها بالحياة حتى سنة وفاته المؤكدة ٥٥٧هـ (١١٦٢م). ومثلها الفترة التي تلت. كانت كلها من أصعب ما مرّ بالأندلس. وأخطره وأدقه. فرقةً وتوحّداً. انكساراً وانتصاراً... وذلك إلى يوم آذنت شمسُ الإسلام بالغروب من سماء الأندلس العربية إلى الأبد!

فبعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م). تمزّقت البلاد إلى دويلات متخاذلة متنابذة. يحكم كلاً منها أميرٌ ينازع الأمراء المجاورين ويطمع في ملكهم بقَدْر ما يعمل منافسون له. في الداخل. على انتزاع ملكه من بين يديه! ومنهم من لم يتورّع عن الاستعانة بملوك الأسبان. الأعداء الألدّاء. على أبناء قومه وملّته! إلى أن سقطت طليطلة العربية. عاصمةُ إحدى هذه الدويلات. وقد كان يملكها «بنو ذو النون». بيد «أذفونْش» (ألفونس السادس ملك قشتالة). سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م).

في ذلك الحين كانت قد نهضت. في العُدْوة المغربية. دولةٌ جديدة فتيَّة هي «دولة المرابطين». أسّسها ورأسها زعيم «موهوب وقائد بارع هو يوسف بن تاشفين». فاندفع إليه

أهل الأندلس وعلماؤها ينشدون عونه على أعدائهم الطامعين أكثر من اندفاع حكّامهم إليه! وسرعان ما عبرت الجيوشُ المرابطية، المجاهدة، مضيق جبل طارق، ثم انضمّت إليها الجيوش الأندلسية، لتخوض جميعا، تحت راية واحدة، « معركة الزلّاقة » سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) التي تُعدّ من أروع معارك العروبة والإسلام. وقد كان من شأن هذا الانتصار العظيم أن وحّد العُدْوتين، المغربية والأندلسية، في ظل زعامة الخليفة المرابطي ابن تاشفين (حكمه من ٤٦٣ ـ ٥٠٠هـ)، الذي قضى على ملوك الطوائف جميعا. وأضحت الأندلس ولايةً مغربية تخضع لحكومة مرّاكش، بعد أن كانت المغرب، قبل ذلك بنحو نصف قرن فقط، ولايةً أندلسية تخضع لخلافة قرطبة الأموية.

خَلَفَ ابنُ تاشفين، بعد وفاته، ابنُهُ « علي بن يوسف »، الذي اندلعت، في عهده الطويل، ثورةٌ في قرطبة (سنة ٥١٥هـ)، كما ظهرت في العُدوة المغربية، دعوةٌ إسلامية أخذ ينادي بها « ابن تومرت »، استفحل أمرها حتى تمكّن « عبدالمؤمن بن علي » من تقويض أركان الدولة وأقام على أنقاضها دولةً قوية أخرى هي « **دولة الموحدين** »، نشأت في المغرب وامتد سلطانها إلى الأندلس سنة ٥٤٢هـ. وكان عبدالمؤمن، أيضا، زعيماً موهوبا وقائدا بارعا. وقد حقّق واحدٌ من أبنائه، هو حفيدُه « يعقوب المنصور »، نصراً مؤزرا على الأسبان في معركة شهيرة سمّيت « يوم الأَرَك » سنة ٥٩١هـ (١١٩٥م).

وممّا تجدر ملاحظته أنه بالرغم من اضطراب أحوال الأندلس في أيام دول الطوائف، واعتداءات الأسبان المتفاقمة، والثورات الداخلية والقلاقل والتغييرات السياسية، فإن الأندلس ظلّت البيئة المواتية، لأن **ينبغ فيها كثير من الشعراء والعلماء والفلاسفة**. في ظل دول الطوائف والمرابطين والموحدين، كان من أبرزهم ابن زيدون وابن عمّار وابن قُزْمان (في الزجل الأندلسي) وابن باجّة وابن البكري وابن حزم وابن حيّان وابن طُفَيْل وابن رشد... وغيرهم كثير.

وكان من هؤلاء « بنو زهر »، أطباءٌ ستة تعاقبوا في أجيال ستة، ثالثهم هو « عبدالملك »، المكنّى بـ « أبي مروان »، الذي عمل في إشبيلية خاصة، وخدم طبيباً في بلاط المرابطين في عهد علي بن يوسف، ثم في بلاط أول خلفاء الدولة الموحدية، عبدالمؤمن، فكان طبيبه الخاص.

نشأ « **عبدالملك بن زهر** » في بيت يظلّله العلمُ والأدب ويرفل بالعزّ والجاه العريض. **فأبوه**، « **أبو العلاء زهر** » يمارس صناعة الطب حاذقاً فيها، فيطير صيته إلى بلاد الأندلس والمغرب، وكذلك **جدُّه وسميُّه** « **عبدالملك** »، وقد طبب كلاهما الملوك والأمراء، وتبوّآ منصبَ الوزارة... فكان أن ترعرع الإبن عبدالملك، في أحضان هذه الأسرة، وهو واثقٌ من نجاحات تسعى إليه مثلما يسعى هو إليها!

ومع أن « أسرة زهر » قد أنجبت، بعد هذا الإبن، **ثلاثةَ أطباء آخرين**، وأنجبت **طبيبتين اثنتين**، في الأجيال الثلاثة التي تعاقبت، اشتُهروا وسجّل التاريخ أسماءهم بمداد الذهب، إلا أن عبدالملك ـ الذي تُعرِّفه لنا المراجعُ التاريخية بـ « الابن » ـ كان أبعدَهم شهرةً وذيوعَ صيت، فهو بمنزلة الدُّرَّة المتألقة، أو هو واسطة العِقْد في جيد هذه الأسرة الطبية العربية العريقة. حتى إنه إذا ذُكرتْ كتب الطب والتاريخ اسمَ « ابن زهر » مطلقاً انصرف الذهنُ إليه هو دون أيٍّ من أصوله أو فروعه!

٢ ـ « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » :

صنّف ابن زهر، في حياته المديدة الحافلة، عدداً من الكتب في صناعة الطب، لعل أولها « كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد » (سنة ٥١٥هـ)، ألّفه للأمير المرابطي « إبراهيم بن يوسف بن تاشفين » شقيق الخليفة « علي ».

ومنها كتابان ألّفها لولده الطبيب الشاعر « أبي بكر محمد » : تذكرة في أمر الدواء المسهل، وتذكرة في علاج الأمراض.

ولكن أهمَّ مؤلفاته وأبلغَها أثراً وتأثيرا، كان ولا شك « كتاب التيسير في المداواة والتدبير »، **فهو الكتاب ـ الأمّ**، بين مؤلفاته وبين ما صنّفه أطباء عصره في الأندلس. ويكتسب هذا الكتابُ أهميةً خاصة في دراستنا هذه، وبالأحرى : إضافة، تتبدّى في **النصوص الصغيرة التي وشّاه بها أبو مروان، تلك التي تتعلق بمشاهداته وبأطراف من ذكرياته، حلوها ومرّها!** فإنها ستكون **مصدراً** لنا يُمدّنا بما يُعيننا في تَبَيُّن مدى علم الرجل، ويساعدنا في رسم شخصيته الفذّة التي لم تذكر لنا المراجعُ التاريخية من ملامحها المضيئة إلا نبذا.

صنَّف ابن زهر، كتابه النفيس هذا، **في أوائل عهد الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي**، الذي بسط سلطانه على الأندلس منذ سنة **٥٤٢هـ**. في « خطبة » الكتاب غيرُ إشارةٍ إلى شعارات الدولة « الموحدية » وداعيتها « المهدي » بن تومرت(١).

ونعتقد أنه **ألف الكتاب بِوحيٍ من ذاته** وليس بإشارة أو بطلبٍ من أحد. فالكتاب يجمع خلاصة علم الرجل، الذي اكتسبه بالتعلُّم والممارسة والتجربة. وقد فرغ من تأليفه قبيل وفاته بسنوات معدودات. وما كان يَسَعُه، وهو الطبيب المداوي المعطاء، أن يحبس ما في صدره من العلم الغزير ويمضي به إلى القبر، لو لم يَطلب منه أحدٌ أن يُودعه في هذا الكتاب!(٢)

جعل أبو مروان كتابه في **سِفرين اثنين**. بدأ أولها بنصائح وتوجيهات تتعلّق بـ « حفظ الصحة »، أو ما نسمّيه اليوم بـ « الوقاية »؛ وبعدئذ أخذ يبحث في « الأمراض المختصة بعضو عضو »، بدءاً بـ « علل الرأس »؛ ثم ثنّى ـ كما يفعل الأطباء القدماء ـ بذكر « ما يحدث في جسم الإنسان عموماً من الأمراض »، وبدأه بـ « الأورام والحِكّة والقروح والدماميل »... مضيفاً إلى السفرين جزءاً سمّاه « **الجامع** ».

وقد اختتم كتابه ـ ولنقلْ : موسوعته ـ بهذا **الختام اللطيف** :

« وهذا القانون يصحبُكَ في أعمالك، فلا تعدلْ عنه إلى سواه، وعوِّل عليه وبالله التوفيق. فقد أُقدركَ الله على تركيب كلِّ ما تريد تركيبه من شراب ودهن (...) وعلّمتُكَ ذلك بلفظ وجيز، ولو سلكتُ ذكرها، شراباً شرابا ودهنا دهنا، لطال كتابي واستُثقل قولي! وإنما كلامي نُبَذٌ تذكَّرتُها، وأشياءُ من علم الطب وقوانينه حفظتُها، فأثبتُّها من غير أن أستظهر على ذلك بكتابٍ أو أستعين بديوان، إلا فيما هو مركَّب قديم لا يمكن إلا إثباته على ما ذكرته من هذه المعاجن فنقلتُها من مواضعها (...) فإن تكن إصابةٌ، فتوفيق الله سبحانه؛ وإن يكن تقصيرٌ، فقد اجتهدتُ، واللهُ شاهدي، وهو سبحانه ينفع بكتابي، ويُعلي أمرك وذكرك بمنّه ولا ربّ سواه »(٣).

فرغ عبدالملك بن زهر من تأليف « التيسير » في **منتصف القرن السادس الهجري تقريبا**. وكان لا بد من أن يلقى الكتابُ القبولَ والاستحسان الذي يستحق، في حياة مؤلفه وبعد

وفاته ، كما كان متوقَّعاً أن تتم ترجمتُه إلى اللغة العبرية ، التي كان يهود الأندلس ينقلون إليها أمهاتِ الكتب العلمية العربية . وعبر هذه القناة تمّت ترجمة « التيسير » إلى اللغة اللاتينية غيرَ مرة ، وأصبح الكتاب يُدرَّس في بعض الجامعات الأوربية في القرون الوسطى .

ولقد قُيِّض لمخطوطة « التيسير » أن ترى النور ، على صورة كتاب مطبوع ، في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، وعلى وجه التحديد سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) ! قام بتحقيقه **الدكتور ميشيل الخوري** عضو مجمع اللغة العربية(٤) ، وتولّت نشره **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (تونس)** ، وراجعه على أصوله المخطوطة **الدكتور عبدالكريم اليافي** عضو المجمع أيضاً ، وقدَّم له **الدكتور محي الدين صابر** المدير العام للمنظمة(٥) .

٣ ـ علم ابن زهر وتجربته :

لدى قراءتك « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » يتراءى لك ، عَبر صفحاته ، ذلك **الطبيبُ العالِم المتحرِّي** ، الذي يُقدِّم لك علمه وتجربته **بتواضع جمّ** . وربما استطرد ، وهو يشرح لك الأمراضَ والأعراض والأدوية والمعاجن ، فأخذ يحدثك عن **ذكرياته الخاصة** ، وعندئذ يعود بك إلى موضوعه مع اعتذار منه لطيف ! وتراه **يريد للطبيب أن يُخلِص في مهنته** ويتمسَّك بالعهد الذي قطعه على نفسه أمام الله يوم تعلَّم صناعة الطب ، كما **يريد للعليل أن يثق بطبيبه** ، وأن يُصغي لنُصحه ويأخذ بتوجيهاته ، وأن يكون ، كذلك ، « من أهل الصبر والجَلَد »(٦) .

ولقد رأى كثيرٌ من الباحثين أن من يقرأ « كتاب التيسير » يتخيّل أنه يستمع إلى **درس يُلقيه عليه أستاذٌ متمكّن قدير!** . لنصغ إلى أبي مروان وهو يشرح لنا « **تركيب العين** » ، حسب تصوُّره لذلك وتصوُّر أسلافه :

« والعين مركَّبةٌ من عدّة طبقات ، أولها مما يلي القِحْف كأنها غشاء ، ويليها إلى جهة الهواء شبيهةٌ بالمشيمة ، وتلي المشيمة شبيهة بالشبكة . وللعين رطوبات أشرفها الجليدية ، وهي الآلة للإبصار . وهي بين رطوبتين : فمن جهة القِحف الرطوبةُ الزجاجية ، وهي للجليدية كالغذاء لموافقتها لذلك ، ومما يلي الهواء الرطوبةُ البيضية وهي تُندّي الجليدية وتحيط بها وتحفظها . والمحيط بالرطوبة البيضية يشبه العِنَبَة ، لونها أسود فِرْفيريّ ، ويعلوها غشاء محيط يشبه القرن المنحوت

مركَّب من أجزاء كالصفائح، ويحيط به، إلا اليسيرَ منه مما يلي خارج العين، الملتحمُ وهو لا يعمّ القرنية كلها... »(٧).

ثم انظرْ إلى دقّته وهو يشرح لك طريقةً بها تستطيع، إن كنت طبيبا، أن تُخلّص مريضك من أوجاع تُسبّبها له **حصى في الكُلى أو في المثانة**... فإذا ما اشتدّ الوجع على العليل، لانسداد مجرى المثانة، بسبب اندفاع شيء من الحصى إلى هذا المجرى، يقول ابنُ زهر :

« رقّد العليلَ على ظهره وُمّرْه أن يهتزّ، لأن كلّ جسم أرضيٍّ ينزل بطبعه إلى جهة الأرض، فإن الحصاة ترسُب إلى المثانة. وليفعلْ ذلك في الحمّام (... وأن) يبول وهو على ظهره، وأن يَغمِزَ بيده غمزاً خفيفاً على موضع المثانة من خارج، فإنّ العليل يبول على تلك الحال وتسكن شدةُ ألمه جملةً »(٨).

وقد تحدّث بعض الباحثين الغربيين عن **ابتكارات في الطب** استحدثها ابنُ زهر. يقول المستعرب الفرنسي **غبرييل كولان**، بحماسة ملحوظة :

« ونجد في آثار ابن زهر، لا نظرياتٍ أصيلة فحسب، ولكن نجد أيضا ابتكاراتٍ مستحدثةً لم يسبقه إليها أحد، كوصفه للأورام التي تحدث في الغشاء الذي يَقْسم الصدرَ طولاً، أو قرحةِ الحجاب الحاجز، وهي أمور لم يسبقه إلى وصفها أحد. وكان أولَ طبيب عربي يَقبل عملية خزع الرغامي. وقد عرف التغذية الصنعيّة عن طريق البلعوم والشرج وشرح طريقَتها »(٩).

فأما **الورم، في ذلك « الغشاء الذي يقسم الصدرَ طولاً »** والذي يُسمَّى اليوم : « المُنَصِّف Mediastin »، فإليك الوصف الذي أبقاه لنا طبيبُنا العربيُّ منذ أكثر من ثمانية قرون... يقول :

« ويحدث في الصدر، في الغشاء الذي يقسمه طولاً والرئةُ والقلب منوطةٌ به، أن يَرِم (...) وورمُ هذا العضو يتبعه سُعالٌ ملحّ، ووجعٌ يمتدّ طولاً إلى اللّبَة، واختلاطٌ في الذهن، وحمّى حادة. وأما النبض، فإنه يكون مِنْشارياً بذات موضع الورم (...) ويجد صاحبهُ تلهّباً وعطشا شديدا، واستنشاق الهواء البارد يُسكّن عطشه أشدَّ ممّا يسكّنه شربُ الماء البارد. وأما التنفُّس، فيكون صغيراً متواتراً شديد الحرارة. وفي مثل هذا الورم القصدُ فيه لازم »(١).

وقد يقوم ابنُ زهر **بتجربة**، ولكنه لا يَنصح الأطباء بها، لأن الأمر، كما يراه، « عويص في نفسه »، إلا أنه يذكرها لك في ختام بحثه حُذِرا! في حديثه **عمّا يَعرِض في الرقبة من الأورام**، من « انتفاخ اللهاة »، التي « إذا عَظُم ورمُها لم يُؤمَن الاختناق »، و « الذُبحَة »، التي تكون في « عضل الحنجرة إذا ورمت »، وكذلك الأورام في ما يلي الرقبة : في « قصبة الرئة » وفي « المري »... يقدِّم لك، في حديثه ذاك، كلَّ ما عنده من علاجات، وبعدئذ ينصحك، أنت الطبيب المداوي :

« وأقول لك، في هذا الموضع، قولةً اعتمد عليها، في هذا وفي سائر أورام باطن البدن (...) : **أن تُماطل العليلَ وتُدافعَه عن النوم**، حتى يأخذ الخلْط (١١) في التحلّل والارتداع (...) واجتَهدْ فيه بتلطُّفٍ من غير حَمْل، مثل أن تَشْغَله بالأحاديث المطرية! »، وشمِّمْه رائحةَ الكافور، فإنَّ ذلك يُعينه على قلة نومه وسهره، أو رائحةُ شجرة الرُّهبان، مفرِّقاً في هذا بين حالات يكون فيها العليل شاباً أو كهلاً أو شيخا، وبين ما إذا كان الفصل صيفاً أو شتاء... إلى أن يقول :

و « إني أَضربتُ عمّا ذكره الأطباء، في علاج « **الذُبحَة المُفْرطة** »، من **شقَّ الرئة** شقّاً يكون قَدْره مثلَ ثُقْب الأنف الواحد أو دون ذلك (...) غير أني، وقتَ طَلَبي، عندما رأيتُ ما ذكره الناس المتأخرون من ذلك (...)، **شققتُ قصبةَ عنْز**، بعد أن قطعتُ الجلد والغشاء تحته، وقطعتُ من جوهر القصبة قطعاً باتّا دون قَدْر التُرْمُسَة، ثم التزمتُ غسل الجرح بالماء والعسل حتى التأم، وأفاق إفاقةَ كلية، وعاش مدة طويلة... ».

ومع نجاح تجربته في ذلك العنْز، فإنَّ طبيبنا يُنبِّه : « ولكن هذا شيء لم يستعمله أحدٌ ممَن لحقناه وممَن لحقه سلفُنا، فلهذا لم أذكره بدءاً »! (١٢).

وهنالك عدد من الباحثين أكدوا أن ابن زهر **كان أول من وصفَ طفيليَ الجَرَب**، المسمّى « صؤابة الجرب »، وذلك في قوله، هذا الدقيقِ الواضح :

« ويحدث في الأبدان، في ظاهرها، شيءٌ يَعْرِفه الناس بالصؤاب، وهو حِكَةٌ تكون في الجلد، ويخرج ـ إذا قُشر الجلد ـ من مواضع منه، **حيوانٌ صغير جدا يكاد يفوت الحسَ** » (١٣).

ومن **ابتكارات** أبي مروان، التي لم تَرِدْ في كتابه(١٤)، ما رواه ابنُ أبي أصيبعة من أن الخليفة الموحدي عبدالمؤمن « احتاج إلى شرب دواء مسهل، وكان يكره شرب الأدوية المسهلة، فتلطَّف له (طبيبُهُ الخاص) ابنُ زهر في ذلك، وأتى إلى كرمة في بستانه فجعل الماء الذي يسقيها به ماءً قد أكسبه قوةَ أدوية مسهلة، بنَقْعها فيه أو بغليانها معه! ولما تشربّت الكرمة قوة الأدوية المسهلة التي أرادها **وطلع فيها العنب وله تلك القوة**، أُحمى الخليفة، ثم أتاه بعنقود منها، وأشار عليه أن يأكل منه. وكان (الخليفة) حسنَ الاعتقاد في ابن زهر. فلما أكل منه، وهو ينظر إليه، قال له : « يكفيك يا أمير المؤمنين، فإنك قد أكلت عشر حبّات من العنب، وهي تخدمك عشرة مجالس! ». فاستخبره عن علة ذلك، وعرّفه به. ثم قام على عدد ما ذكره له، ووجد الراحة. فاستحسن منه فعله هذا وتزايدت منزلتُه عنده »(١٥).

ومن **أخلاق ابن زهر الطبية** أنه كان ـ إلى اعتداده بنفسه وبعلمه ـ متواضعاً لا يتردد في التراجع عن رأيٍ له متى بدا له أن ثمة رأياً أفضلَ منه، وكذلك في الاعتراف بخطئه ـ إن أخطأ ـ مع التعبير عن بالغ الأسف والندم!

روى ابن أبي أصيبعة، في ترجمته للطبيب « أبي بكر محمد » ابنِ طبيبنا عبدالملك والمعروف بـ « الحفيد »، أنه ـ وقد كان طبيباً « صائبَ الرأي، حسنَ المعالجة، جيدَ التدبير » ـ سمح لنفسه، وهو في « حال شبيبته »، أن يُشير على الخليفة عبدالمؤمن بوجوب أن يُبدِّل، بدواءٍ مفرد كان أبوه قد وصفه له، دواءً غيرَه قام هو بوصفه! فلم يتناول عبدالمؤمن هذا الدواء، فلما رآه الطبيب الأب قال : « **يا أمير المؤمنين، إن الصواب في قوله!** »، وبدَّل الدواء، فوجد الخليفةُ نفعا بيِّنا(٦).

ولكنه **يعترف بخطئه صراحة، إذا ما أخطأ في تشخيص مرض أو وصف دواء، معبِّراً لك عن عميق ندمه وهو يستغفر الله من الغلط !**

يقول، في « التيسير »، إن الأطباء يتكلمون بحسب إدراك عقولهم : « وتقف عقولنا فيما حُجب عنها! ». ثم يروي ما كان منه، وهو في أول اعتقاله بمراكش، فقد شكت « المرأة »(١٧) أمراضاً اقتضى الحال أن يصف لها أدوية، لم يكن لأحد قط أن يتخيَّل ـ مع شُرب جزء يسير منها ـ أن « الجنين يبقى » إن كانت المرأة حاملا! وقد تمادى في تجريعها الدواء

دون أن يُؤثِّر فيها شيئا... حتى تبين له أنها حامل! يقول : « **فندمتُ، واستغفرت الله من الغلط** »، ومع هذا ـ يقول ـ « وُلد ذلك الجنينُ سوياً بإذن الله، وها هو عندي! »(١٨).

على أنه **كان، في ابن زهر، جانبٌ** « **صيدلانيٌّ** » إلى جوار الجانب «الطبى»، في تكوينه العلميِّ والعملي. يقول في ذلك ـ كالمعتذر! ـ : « ... وأما أنا، **فإنَّ في نفسي مرضاً من أمراض النفوس**، من حبِّ أعمال الصيدلانيين، وتجربةِ الأدوية والتلطُّفِ في سَلْب بعض قوى الأدوية وتركيبِها في غيرها، وتمييزِ الجواهر وتفصيلها، ومحاولة ذلك باليد. وما زلت مغرماً بذلك مبتلىً بحبّه، فسلكتُ هذا المنهاج شهوةً فيه، وإن كان على ما هو عليه من الامتهان! ! »(١٩).

وفي اهتمام ابن زهر الملحوظ بالأدوية، نراه يوجّه إلى الأطباء هذا **النصح الغالي**... استمع إليه :

« ولا بد لك أن تنظر **بحسب القوة والسن والمزاج**، كما قد ذكرتُ لك. فإنه ليس يحتمِلُ من الأدوية الصبيُّ ولا الشيخُ الفاني ما يحتمله الشابُّ أو الكهل؛ وكذلك ليس يحتمل أهلُ الدَّعة والخَفْض ونَعامةِ الأبدان وأهلُ الزَّعَر(٢) من الأدوية ما يحتمله القرياتيّون(٢١) الذين أبدانهم سُمْر قحلة(٢٢) (...). والمزاجُ الطبيعي لأهل الدعة والزَّعَر أرطبُ من المزاج الطبيعي للقرياتيين أهل الجَلَد. فتذكَّرْ هذا أبدا، ولا تضرب بيدك إلى علاج حتى تخطر هذا في نفسك، والله أسأل أن يوضح لك منهاج الصواب بقدرته »(٢٣).

ولن أدعك، عزيزي القارىء، قبل أن أذكِّرك بأنَ من الغذاء، الذي كان الأولون يرونه نافعاً، « الحيّات »، على أن تُراعى في انتقائها، وفي ذبحها، وفي إعداد الأقراص من لحمها، طرقٌ خاصة! فالحياة « يزداد شرُّها كلما بَعُدت مواطنُها عن المياه ». ويتابع العالم الدكتور أحمد شوكت الشطي، مؤرخ الطب، في حديثه عن مخطوطة ابن زهر الموسومة بـ « الأغذية »، فيقول : ويذكر ابنُ زهر في صدد ذلك خبرتَهُ قائلاً : « وأما أنا، مراراً كثيرة أمرتُ من يشكو فساد مزاجه أن يأكل من الأفاعي بِيضَها، فانتفع بذلك »، وهو قد أطعمها للخليفة المرابطي علي بن يوسف فانتفع بها، ثم يشرح ابنُ زهر « طريقة ذبحها الضامنة لعدم تسرُّب سمومها إلى جسمها »(٢٤)... فماذا ورد حول ذلك في « كتاب التيسير »؟

يقول ابن زهر في « الجامع »، وهو الجزء الذي ألحقه بـ « التيسير »، تحت عنوان « **صفة عملِ أقراص الأفاعي** » :

« يؤخذ من الأفاعي المعتدلةِ القدّ، الحُمْرِ الأعين، السريعة الحركة، الواسعة الرؤوس، التي يتحوَّل طرف فكها الأعلى إلى فوق كأنه ثؤلول. تأخذها في فصل الربيع، بعد أن يمضي عليها وهي تخرج من أجحارها نحو عشرين يوما. ولا تكون أذنابها متلوِّنة، وهي صفة الإناث وهي المستعملة، فأْمرْ بقطع رؤوسها وأذنابها، وقدّرْ ما تقطع من رؤوسها وأذنابها أربعَ أصابعٍ، تُقطَع دُفعةً واحدة بسكّين على هذه الصفة : يوضع عليها، ويُضرَب، بمِرْزَبَّة لها ثِقلٌ معتدل، على ظهر السكين لينقطع طرفاها دُفعةً. وأجودها ما تحرَّكت جثثُها بعد القطع بسرعة ودامت حركتها. تُسلخ الأفاعي برفق بعد قطعها، وأْمر بإزالة شحومها ومِعَاها. ثم توضع في قِدْر جديدة على نار فحم فيما يغمرها من ماء العيون، ويوضع عليها في الماء ملحٌ يسير وشبث رطب لا يابس، وتُطبخ. فإذا نَضِجتْ لحومها نُضْجاً جيدا، فأْمر بإنزال القدر، وأْمر بتنقية الشوك من لحومها. ثم أْمر بسحق اللحوم مع زنتها من خبز مختمر من سميد، حتى يأتي الجميع شيئا واحدا، ثم يُقرَّص ذلك. فإذا قرَّصتَها فامسحْ يديك بدهنِ بَلَسَان، وجفِّف الأقراص في الظل »(٢٥).

٤ ـ اعتقال ابن زهـر :

ألمحنا، غيرَ مرة، إلى أن عبدالملك بن زهر **اعتقل وقضى مدةً في سجنٍ بمراكش!** والواقع أن **المصادر التاريخية لم تُفصح لنا عن الأسباب** التي حملت الخليفةَ المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين على سجنه، وإن قال « ابن الأبّار » عن أبيه « زُهر » أنه « توفي بقرطبة منكوبا »(٢٦).

وأما اعتقال الابن، عبدالملك، فقد أشار هو نفسه إليه في « التيسير » مراتٍ كثيرة. فقد كان يتوقَّف وقفاتٍ مُفعمةً بالمرارة والألم، كلما عنَّت له ذكرى من أيام السجن، كما أنه أشار مرة إلى تجولُّه « منفياً في البلاد مع أحد الثوار! »(٢٧). وقد تبيّنا أيضا، شيئاً من معاناته لدى استئنافه عملَهُ بعد إطلاق سراحه، وقبل أن يقع ذلك « الانقلاب » الذي آل فيه الحكم إلى أيدي « الموحدين ». وكما غَمُضَت علينا أسبابُ اعتقاله، **كذلك جهلنا المدةَ التي قضاها** بين السجناء المعذّبين في سجن مراكش أيام تلك الاضطرابات والفتن(٢٨).

ولقد كان متوقَعاً من طبيبنا العالم المتطلع أن يستفيد، وهو في السجن، من مشاهداته، فيُضيف إلى معارفه الجمّة تجاربَ مما يُعاين في عالم السجناء. يقول، في حديثه عن « الأمراض الوبائية وما يكون من الحُمَّيات فيها »، الوباء الحادث برداءة الأغذية، أنَّ الوباء يكون « أيضا عند إفراط المجاعات واضطرار الناس إلى أكل الحبوب الرديَّة (... أو) اللحوم الرديّة (...)، وقد شاهدتُ، وأنا في أَسْرِ علي بن يوسف وفي سجنه، قوماً، كانوا في أطباق سجنه المعروف بـ « قرقيدن »، يتطارحون على أعشاب كانت تُزال عن السقوف ويأكلونها. وإن مما كانوا يأكلون نوعاً مذموما ممن أنواع اليتوع وغير ذلك لألم الجوع. وكان يموت كلَّ يوم منهم عدد من عشرة »(٢٩).

على أن حاجة علي بن يوسف إلى طبيبنا العليم ظلت قائمة حتى **وهو في السجن. فكان البلاط يعرض عليه بعضَ الخاصة لمعالجتهم**، ومنهم من وصفه ابن زهر بـ « خطيب » الخليفة عليّ، كانت « به حصاةٌ وهو في أسباب الهلاك، فأفتيتُه بشُرب ثلثٍ واحد من درهمٍ واحد من دهن البَلَسان، فلم يلبث أن بالها بعد يوم، أو أزيد من يوم. فاستغرب ذلك المعالجون والمختصون به وبالشقيّ صاحبه(٣)، فسألني حيث ذُكر فقلت قد ذُكر »(٣١).

٥ ـ وفاة ابن زهر بمرض يسمّى « النَغلة » :

قلنا أنه **لم تُعرف السنة التي ولد فيها عبدالملك بن زهر**. إلا أن هناك من يقول إنه كان، يوم حضرتْه الوفاة، قد بلغ السبعين، وهنالك من يرى أنه تجاوز التسعين. وكانت وفاته، مثل أبيه، بـ « **النَّغْلَة** »، ذلك المرض المستعصي على البرء الذي كان قد أتى على وصفه في « التيسير » فقال : والنَّغْلات هي « أورامٌ تكون تحت الكتف، غائرةً إلى الداخل، تعرِض في اليمين وفي الشمال (...) وإنما تعرض لمن أسنَّ، وأكثر ما تكون إذا تعرَّض للإنسان أنكادٌ وكان يُكثر الفكرةَ وتتوالى عليه الهموم... »(٣٢).

وممّا تحدّثُنا به إحدى الروايات أنه كان في إشبيلية، أيام ابن زهر، طبيبٌ يُعرف بـ « الفار »، دأب على أن يُداعب أبا مروان، المُكثر من أَكل التين، بقوله : « **لا بد أن تعرِض لك نُغْلةٌ صعبةٌ بمداومتك أكلَ التين!** »، وابنُ زهر يستجيب للدُّعابة بمثلها : « ولا بد، لكثرة حِمْيتك وكونك لم تأكل شيئاً من التين، أن يُصيبك الشُّناج! ».... وتقول

الرواية : « فلم يمت المعروف بالفار إلا بعلّة التشنُّج، وكذلك أيضاً عرض لأبي مروان بن زهر دُبَيْلة في جنبه وتوفي بها! وهذا من أبلغ ما يكون من تقدمة الانذار »!(٣٣).

وكان ابن زهر قد قال في النُّغْلات : و « أما الحادثةُ (منها) عن خِلْط محترق، فيكاد أن تكون لا بُرء لها! (... و) مثل هذه لا ينفع فيها عملُ اليد، ومتى نالها الحديدُ(٣٤) تفاقم أمرها، وهي تأكل ما يتّصل بالموضع أكلا »(٣٥).

ويقول عن موت أبيه بها ـ ولم يكن حاضراً مرضَه، لأنه كان في مراكش ـ أن النَّغلة أصابتْه « في الجانب الأيسر وامتدّت طولاً نحو الشبر. ثم عاد الموضع لا يحسّ، وكان المتولّي لعلاجه يقطع أجوافَ النَّغلة فلا يحس بذلك. ولم يزل الأمر كذلك حتى وصل بالاتصال مضارُّ ذلك إلى قلبه، فعرضه سوءُ تنفُّس نحو يومين، ومات رحمه الله »(٣٥).

ومعرفته ـ طبيباً عالماً ـ بالأدواء، وكونُ أبيه قد قضى بهذه العلّة نفسها، التي ـ ها هي ذي ـ تَدْهَمه هو أيضا، ذلك ما جعله يستسلم لعجزه عن مداواتها! ولقد كان يستمع، بعد أن استفرغ جهده في معالجة نفسه بالمراهم والأدوية التي يعرف، إلى ابنه، الطبيب الشاعر « أبي بكر محمد »، وهو يقترح عليه : « يا أبي! لو غيَّرتَ هذا الدواء بالدواء الفلاني، ولو زدتَ من هذا الدواء، واستعملتَ دواء كذا وكذا! »... يصغي الأب إلى ابنه، ثم يقول : « **يا بني! إذا أراد الله تغيير هذه البُنية، فإنه لا يُقدَّر لي أن أستكمل من الأدوية إلا ما يتم به مشيئته وإرادته!** »(٣٦).

وتوفي ابن زهر سنة ٥٥٧هـ (١١٦٢م)، ودفن بإشبيلية خارج باب الفتح.

٦ ـ آثاره :

ألفّ أبو مروان عبدالملك بن زهر عددا من الكتب الطبية، والموجودُ منها في المكتبات العالمية هو :

١ ـ « **كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد** »، ألفه للأمير المرابطي ابراهيم بن يوسف بن تاشفين، وثمة مخطوطةٌ منه في المكتبة الوطنية بباريس.

٢ ـ « **كتاب التيسير في المداواة والتدبير** »، ثمّة مخطوطة منه في كل من : باريس، والرباط، والمكتبة البودلية في اكسفورد، والمتحف البريطاني بلندن.

٣ ـ « **كتاب الأغذية** »، مخطوطة منه بباريس.

ومن الكتب التي ذكرتْها المصادر التاريخية ولم يتمّ العثور عليها :

٤ ـ « **كتاب الزينة** ».

٥ ـ « **تذكرة في أمر الدواء المسهل** »، كتبها لولده الطبيب أبي بكر محمد الذي سمّي فيما بعد بالحفيد.

٦ ـ « **مقالة في علل الكُلى** ».

٧ ـ « **رسالة في علّتي البرص والبهق** »، كتبها إلى بعض الأطباء بإشبيلية.

٨ ـ « **تذكرة في علاج الأمراض** »، كتبها لولده أبي بكر(٣٧).

٧ ـ ما يبقى من ابن زهر :

في « كتاب التيسير في المداواة والتدبير »، رأينا ابنَ زهر وهو **يتحدّى** « **مخالفيه المتوقَّعين** »، في يومه ذاك وفي غده، أن يُحكّموا « **التجربة** » في ما بينه وبينهم... يقول :

« كلُّ ما ذكرتُه في كتابي هذا وأثبتُّه، لا شكَّ سيروم من يتعسَّف تزييفه بالكلام! **وأنا أحاكمهم ـ كنتُ حيّاً أو ميتاً ـ إلى التجربة...** »!(٣٨)

والتجربةُ، فيمـا ابتكر عبدالملك بن زهر وجدَّد، ظلّت قائمةً بعد وفاته رحمه الله، كما ستبقى فيصلَ الحكم في كل ما يَقبل التخريبَ من العلوم. وكان لا بد للتجربة أن تؤكد صحةَ الصحيح الذي جاء به، مثلما تُبيِّن خطأَ ما عداه.

ومع تقدّم العلوم الطبية والمعارف الانسانية، في المائة سنة الأخيرة، فإن كثيراً من المسلَّمات عند الأقدمين قد تبدَّد وذهب أدراجَ الرياح، في ظل الوثبات الكبرى في الطب، وفي العلم، وفي سائر مناحي الحياة.

فكـم بقـي من طب ابن زهر، تحت وطأة التجريب، وكم ذهب؟

إلا أنّ عظمة ابن زهر تُقاس بموازين عصره ومعاييره، لا بموازين أيامنا ومعاييرها. ولقد كان في عصره، طبيباً فذّاً، في علمه، وفي تجريبه وابتكاره، وفي أخلاقه الطبية أيضا، وفي ما كتب مخلّدا ومخلّدا(٣٩).

الهوامـــش

(١) يقول ابن زهر : « الحمد لله الذي كلُّ ما تقع الحواسُّ عليه يشهد له بـ (**الوحدانية**) والقدرة، وصلى الله على محمد المرتضى، ورضي عن أصحابه أعلام الدين ومصابيح (**المهديين**)... ». « التيسير » : ص٧.

(٢) ليس صحيحاً ما ظل يردِّده المؤرخون والباحثون طَوال ثمانية قرون ونيِّف، من أن ابن زهر قد ألّف كتابه هذا **بطلبٍ من معاصره ابن رشد**، وأن هذا الأخير عندما ألّف « كتاب الكليات »، في الأمور الكلية في الطب، « قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب »... **تلك** « **الغلطة التاريخية** » التي وقع فيها ابن أبي أصيبعة (٥٩٦ ـ ٦٦٨هـ) في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء »، ثم تناقلها ـ دون تمحيصٍ ـ كلُّ من كتب عن ابن زهر وكتابه الشهير هذا!

وقد أعددتُ، في تصحيح هذه الغلطة، دراسةً عنونتُها « **مناقشة ابن أبي أصيبعة في مقولته عمّن دفع ابن زهر لتأليفه كتاب التيسير** »، بيّنت فيها أن « تيسير » ابن زهر سابقٌ زمنياً، في التأليف وفي الظهور، على « كليات » ابن رشد، ألقيتُها في المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب الذي أقامه معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب يومي ٢٥ و٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٤، ثم نشرت الدراسة في « **المجلة العربية للثقافة** » (التي تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) العدد السابع، ذي الحجة ١٤٠٤، سبتمبر (ايلول) ١٩٨٤.

(٣) « التيسير » : ٤٨٦ و ٤٨٧.

(٤) توفي بدمشق سنة ١٩٨٠، رحمه الله.

(٥) طُبع الكتاب **بدار الفكر بدمشق**، وجاء في ٥٦٠ صفحة من القطع المتوسط (١٧ × ١٤ سم)، وأُلحقت به فهارس بالمصطلحات الطبية وأسماء الأدوية والأغذية المفردة والمركبة، أعدّها **الدكتور مختار هاشم**.

(٦) **خاصة عند تجبير كسر العظام**، فإن كان العليل « خوّاراً ضعيف النفس ولا شجاعة له (...) فلا بد أن تستعين على ذلك بخَدَمَةٍ حُذّاق لهم جَلَدٌ وقوة يغلبون عليه عندما يجدُ الألم، فلا تُمكِّنه حركةً كيلا يُفسد عليك عملك! ». « التيسير » : ٣١٧.

(٧) « التيسير » : ٥٧.

(٨) « التيسير » : ٢٧٦ و٢٧٧.

(٩) كتاب « الطبيب العربي الأندلسي عبدالملك بن زهر الايادي بمناسبة الذكرى التسعمائة لمولده، أسبوع العلم الثالث عشر ١٩٧٢ » الذي أقامه بدمشق المجلس الأعلى للعلوم، الصفحة : ١٣٣. وسوف نشير إلى هذا المرجع باسم « **كتاب المجلس** ».

(١٠) « التيسير » : ٢٢٦ و٢٣٠.

ثم يحدثنا، ابنُ زهر، عمّا **عاينه هو في نفسه** من أعراض هذا المرض، يوم كان مطارداً من قبل السلطة (ذلك أنه اعتُقل مدةً، كما سيجيء!)... يقول : « فلما أردتُ النوم وجدت حسَّ الوجع في القسم المذكور مستطيلاً، فلم أنزل من مضجعي إلا والأمرُ قد تفاقم، والسُّعالُ قد ألح إلحاحاً كثيرا، ووجدت نبضي صلباً شديد الصلابة. وفي خلال ذلك النَّبتْ بي حمّى حادة، فوجهتُ عند الفاصد، وفُصِدتُ نحو العشاء الآخر واستفرغت من الدم نحو رطل، وبقيتُ ليلتي تلك في جهد شديد من الحمّى والسعال... »، « التيسير » : **٢٣٣**.

(١١) يأخذ ابن زهر **بنظرية** « **الأخلاط** »، التي تحاول أن تفسِّر فعلَ الدواء في الأجسام، تلك التي سادت الطب من أيام الإغريق حتى العصور المتأخرة، متبعاً في ذلك الطبيبَ الاغريقي الأشهر « **جالينوس** »، صاحب هذه النظرية التي كانت ترى الكون مؤلفاً من أربعة عناصر هي : النار والتراب والهواء والماء، تُقابل كلاً منها خاصةٌ معروفة : فللنار الحرارة، وللتراب البرودة، وللهواء اليبوسة، وللماء الرطوبة، والجسم مؤلف من هذه العناصر، ويكون عمل الأدوية هو أن تُعيدَ التوازنَ بين هذه العناصر، ففقدانه يؤدي إلى المرض فإلى الموت.

(١٢) « التيسير » : ١٤٨ ـ ١٥٠.

وفي استقصاء ابن زهر ودقته العلمية يشير، خللَ حديثه هذا، إلى أن الأطباء كانوا قد قالوا أن « جالينوس لم يذكر هذا العلاج »، ويضيف : إنهم لم يصيبوا في قولهم، فإن جالينوس قال : « **فكثيراً ما يُقطع التّربُ وتُشقّ القصبة** »! وقد عنى ابنُ زهر بـ « **التّرب** » هنا : شحم العنق الذي يلي قصبة الرئة، وأما عن « **القصبة** » فقد قال : « جرت عادة القدماء بأن لا يُسمّوا القصبة بإطلاقٍ إلا قصبة الرئة »، « التيسير » : **١٤٩**.

(١٣) « التيسير » : ٣٦٤.

ولكن **الدكتور ميشيل الخوري**، محققَ الكتاب، يُبيِّن، في مقال له سابق على تحقيقه « التيسير »، أن ما يقوله هؤلاء الباحثون يتفق مع ما جاء في **معجم دورلند الطبي الأمريكي** (طبعة ١٩٦٥م) من أن ابن زهر « وَصَفَ صؤابةَ الجرب »، ومع ما ورد في **دائرة المعارف البريطانية** (١٩٦٥م) من أن ابن زهر « كان أولَ من وصف الجرب والصؤابة المسببة له ». إلا أن آخرين ـ يتابع الدكتور الخوري ـ قالوا أن « ابن زهر، بوصفه صؤابة الجرب، كان أولَ عالم في الطفيليات بعد « **الاسكندر الترالي** » البيزنطي، الذي كان من أهل النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ». ويضيف أنه « يتضح من إحدى الدراسات الحديثة أن **أحمد الطبري الفارسي**، وهو من أهل النصف الثاني من القرن الميلادي(!) كان قد سبق ابنَ زهر إلى وصف صؤابة الجرب في كتابه المعالجة البقراطية »، « كتاب المجلس » : ١٨٨ و١٨٩.

(١٤) ربما لأنها وقعت له بعد أن نفض يده من تأليفه!

(١٥) « طبقات الأطباء »، ٢ : ٦٦.

(١٦) « طبقات الأطباء »، ٢ : ٦٨.

(١٧) يعني : حليلته.

(١٨) « التيسير » : ٢٨٥.

ثم إن ابن زهر يستشهد، بعد هذه الواقعة، بحالة، ذكرها جالينوس، انخرق فيها غشاء الدماغ : « والمعلوم المعهود أنّ من انخرق ذلك منه يموت على الفور، فلما رأى جالينوس رجلا انخرق ذلك منه وأفاق، قال : « **فأحياه الله** »! ». يقول ابن زهر غيرَ كاتم إعجابه : « **وما أبدعَ قولَ جالينوس!** »، ثم يضيف : « وكذلك الرجل العاقل

من الأطباء والفلاسفة يستريب بنظره ويقف، ويسند علمَ ما لا تنتهي عقول البشر إليه من ذلك، إلى الله سبحانه »، «التيسير» : ٢٨٥ و٢٨٦.

(١٩) «التيسير» : ٣٢٠.

يقول : «**الامتهان**»! لأنه تلقّى، عن أبيه الطبيب أبي العلاء، أنّ على الطبيب أن يمتنع عن ممارسة ما يسميه «**أعمال اليد**»، تلك الأعمال التي ـ وإن كانت متعلقةً بالطب ـ جديرٌ بها أن تُؤدّى من قبل فئة أخرى من العاملين في المجال الطبي، هم «**صناع اليد**» (وبعضهم ممن نسمّيهم، في مصطلحنا الحديث، بالجراحين، وبعضهم بالمساعدين والممرضين والخدم).

وقد عدّد ابنُ زهر، في موضع من «التيسير»، غير قليل من هذه الأعمال... التي منها «الأغذية والأدوية»، فإن الطبيب ـ كما أخذ عن أبيه ـ يُدبِّر بالأغذية والأدوية أمر المريض، ولكنه «لا يتناول بيديه شيئا من ذلك، كما ليس من شأنه أن يعقد المعاجن إلا في الضرورة»، «التيسير» : ٣١٨ و٣١٩. ومن هنا يرى أبو مروان في «هوايته» هذه خروجاً عمّا رسم أبوه، له وللأطباء عامة!

ومع إقبال ابن زهر على تجربة الأدوية، على نحو ما «اعترف» لنا، فإنّ ذلك لم يُعْفِه من اتهام «**لطيف**» يوجهه إليه، بعدما يزيد على ثمانية قرون من الزمان، **المستعربُ الإسباني** «**سلفادور غوميث نوغاليث**»، الذي قال : «وكثيرا ما يقال أن (عبدالملك) **كان طبيباً أرستقراطياً**، أي أنه كان يكتفي بمعالجة المريض، ووصف الدواء، بدون أن يتنازل ويركب الدواء، أو يلوث يديه في الجراحة التي كان يعهد بها إلى مساعد له»! «المجلس الأعلى للعلوم، أسبوع العلم الثالث عشر، الكتاب الأول»، الدكتور سلفادور غوميث نوغاليث، محاضرة بعنوان : «ابن زهر الطبيب الأندلسي» : ٢٩٨. وسوف نشير إلى هذا المرجع باسم «محاضرات المجلس».

(٢٠) الزَّعَر : قلّة الشعر. والزَّعِر : القليلُ الشعر والمتفرِّقُه، كالأزعر، وهي زعراء ج زُعْر.

(٢١) الفلاحــون.

(٢٢) يابســة.

(٢٣) «التيسير» : ٤٢٩.

(٢٤) «كتاب المجلس» : ١٤٣، مقال بعنوان : «منتحبات من كتاب الأغذية».

(٢٥) «التيسير» : ٤٧٧ و٤٧٨.

ويلاحظ، في النص، مدى ترفُّع ابن زهر عن أن يَرضىٰ للطبيب أن يعمل بيديه في تحضير هذا الغذاء الدوائي! إنه ليُخاطبه : «فأمُرْ» بقطع رؤوس الأفاعي، «يُضْرب» السكّينُ، «تُسلَخ»، «وأْمُرْ» بإزالة شحومها... يَطلبُ منك، بصفته أستاذاً لك، أن «تأمر» مساعديك بالعمل، مستخدماً في ذلك، بعد فعل الأمر، المضارعَ المبنيَّ للمجهول!

(٢٦) «التكلة لكتاب الصلة»، المطبوع في مجريط ١٨٨٦، نقلاً عن «كتاب المجلس» : ٢٢.

(٢٧) «التيسير» : ٢٥١.

(٢٨) في **أسباب اعتقاله، الغامضة**، نتساءل : ترى **هل مال عبدالملك وأبوه زُهر، إلى دعوة الموحدين** التي بدأ انتشارها سنة **٥١٥هـ**، قبل أن يستفحل أمرها فتُقوِّض أركانَ الدولة، فنقم عليها الخليفة المرابطي علي بن يوسف، فنكب الأبَ في قرطبة وساق الابنَ إلى سجن مراكش؟ ذلك أن عبدالملك نال، بعد أن رفرفت راياتُ الموحدين في سماء الأندلس، منزلةً كبرى عند خليفتهم «عبدالمؤمن» حتى إنه غدا طبيبه الخاص!

أقدم رأيي هذا **بتحفُّظ** ، **فإنّ من الأسباب الملحوظة** ، **أيضاً** ، لمنزلة كبرى ينالها عبدالملك عند الخليفة الجديد، أنه كان أعظمَ أطباء زمانه، **فهو** لهذا وحده جديرٌ بأن يغدو طبيب الخليفة الخاص. وإن مما يزيد في عطف زعيم الدولة الجديدة على أبي مرزان أنه كان قد نُكب هو وأبوه، في العهد « البائد »، في الحرية الشخصية وفي المال!

(٢٩) « التيسير » : ٤٣٠. ذلك في أثناء الحروب الأهلية الطاحنة التي دارت بين المهديين (الموحدين) وبين دولة المرابطين، وما رافقها من مجاعات.

(٣٠) يقصد الخليفةَ علياً بن يوسف!

(٣١) « التيسير » : ٢٧٧.

ويرى المستعرب الاسباني نوغاليث أنّ ما أنقذ ابنَ زهر من الاعتقال هو « براعته الطبية، فقد كان يداوي رفاقه في السجن وافرادَ عائلة الحاكم، لذلك **اتخذه أبو يوسف طبيبا خاصا له، وأوصاه بتأليف كتاب** يكون بمثابة مختصر طبي يُتداول في المحادثات العلمية في البلاط »، « محاضراتُ المجلس » : **٢٩٧ و٢٩٨**.

ونرى أنّ اطلاق سراح ابن زهر **لم يُعْقِبه استردادٌ لسابق مكانته** عند الخليفة المرابطي، وهو بالتالي **لم يعد طبيبه الخاص**، وإن كان **يُشارك** غيره من الأطباء في معالجته. يحدثنا ابن زهر أنه، في مرض الخليفة الأخير الذي مات منه، بادر « **سفيان طبيب علي بن يوسف** (حسب قول ابن زهر نفسه) إليه من الأندلس، وكان شيخاً فأجهد نفسه (...)، فدخلتُ عليه فرأيته مضطرباً، وعرض عليٌّ ماءه، وكان عهدُ أخذه قريبا (...) ومات إلى ثلاثة أيام »، « التيسير » : **٣٩٩**.

ثم إنه لم يَرِد، بين مصنّفات ابن زهر، كتابٌ ألفه بتوصية من « **أبي يوسف** »... وذلك إن كان المقصود بأبي يوسف « **عليٌّ بن يوسف** ». وأما إن كان الدكتور نوغاليث يقصد الخليفةَ عبدالمؤمن، الذي ألف أبو مروان له « الترياق السبعيني »، فإن الخليفة كان يُكّنى بـ « **أبي محمد عبدالمؤمن** » وليس بأبي يوسف، مع أن من خَلَفَه بعد وفاته كان ولدَه « أبا يعقوب يوسف ».

(٣٢) « التيسير » : ٣٨١ و٣٨٢.

وقد وردت ترجمة الكلمة إلى الفرنسية، في « جدول المصطلحات الطبية الواردة في الكتاب » : Pyodermie gangreneuse وذلك يعني، في المصطلح الطبي العربي الحديث : **تقيُّح غَنغريني (أو أكالي)**.

(٣٣) « طبقات الأطباء »، ٢ : ٦٧. و « الدُّبَيْلة » هي الثُّعْلة بلغة أهل المغرب.

(٣٤) يعني : الجراحة.

(٣٥) « التيسير » : ٣٨٢.

(٣٦) « طبقات الأطباء » ، ٢ : ٦٧.

(٣٧) « كتاب المجلس » : مقالات وبحوث فيه متفرّقة.

ويلاحظ أن ابن أبي أصيبعة ذكر في « طبقاته »، لدى ترجمته لابن زهر، أنه ألّف للخليفة عبدالمؤمن « **الترياق السبعيني**، واختصره عشاريًا واختصره سباعيًا. ويعرف بترياق الأنتلة » (٢ : ٦٦)، ومع ذلك لم يَذكر هذا الكتاب بين ما عدد من كتبه... **فهل هو** أحد الكتب التي ذكر وقد اختلفت فيه التسمية؟

(٣٨) « التيسير » : ٣٢٦.

(٣٩) لدينا في الإعداد دراسةٌ عن **أدب الطبيب وأدب العليل عند ابن زهر**.